في تحقيقه لكتاب (إيضاح نظم السلوك) لناصر بن جاعد

وليد خالص يقدم للمكتبة أحد كنوز التراث العُماني ويرصد حياة مؤلفه

قدم المحقق والباحث في التراث الدكتور وليد محمود خالص للمكتبة العمانية والعربية أحد أهم كنوز التراث العماني من خلال تقديمه وتحقيقه لكتاب (إيضاح نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك) للعلامة ناصر بن جاعد بن خميس الخروصي، الذي صدرت طبعته الثانية عن مؤسسة بيت الغشام. وقد كتب المحقق مقدمة عميقة للكتاب تناول فيها التعريف بمؤلف الكتاب، وثقافته، ومكانته العلمية، إلى جانب تحليل مادة الكتاب متطرقا إلى نسبة الكتاب إلى مؤلفه، ووصف المخطوطتين المعتمد عليهما في التحقيق، بالإضافة إلى عمل المحقّق في تحقيق الكتاب.

شح المصادر

ويوضح المحقق أن أهم ما يواجهنا من صعوبات في هذا الاقتراب هو أنَّ المصادر تضنّ علينا بصورة مفصلة لحياة الشيخ ناصر من مولده إلى وفاته، فهي تقدم نتفًا عن هذه الحياة مع شيء يسير عن تفاصيلها، غير أن جمع تلك النتف، وترتيبها ترتيبًا زمنيًا مع الاستعانة بإشارات من هنا وهناك يساعد على إبراز الصورة بشيء قريب من الكمال فيه من الفجوات ما لا يخفى على المدقق.

وفي هذا الشأن يؤكد المحقق أن المصادر تحدثنا عن نسب الشيخ أنه «ناصر بن جاعد بن خميس بن مبارك بن يحيى بن عبد الله بن ناصر بن محمد بن حيان بن زيد بن منصور بن ورد بن الإمام الخليل بن شاذان بن الإمام الصلت بن مالك الخروصي الأزدي القحطاني، وقد ولد الشيخ ناصر في بلد العلياء بوادي بني خروص سنة ١١٩٢ للهجرة في بيت علم، وفقه، وتدريس، ومشاركة في الحياة العامة، فوالده الشيخ أبو نبهان، جاعد بن خميس من أعلام العلماء في عُمان.

ويرى الدكتور وليد خالص أن المصادر لا تقدم شيئًا عن نوعية العلوم التي تلقاها الشيخ ناصر غير أننا نستطيع استنتاج نوعيتها من خلال البيئة التي تفيأ ظلالها، والكتب التي تركها، ويقف في مقدمة تلك العلوم القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف، والفقه، والأصول، وعلم الكلام، والفلسفة مع زاد وفير من علوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والأدب والأخبار، بالإضافة إلى علوم ملحقة بها وجدنا الشيخ مهتمًا بها كالنبات والفلك والتاريخ.

ويذهب المحقق إلى أن للشيخ ناصر ووالده اهتماما بالأحداث السياسية التي جرت بعمان فقد كانا مشاركين فيها بفعالية واضحة، وهذا ما حدا بصاحب التحفة إلى أن يكثر من النقل عنهما وهو يدون تاريخ عُمان. وقد ظلّ الشيخ ناصر مشتغلاً بالعلم إلى آخر حياته، عرف له معاصروه، ومن أتى بعدهم تلك المنزلة العلمية التي وصل إليها كما سنرى فيما بعد، ويبدو أنه ظلّ مستقرًا في بلده العلياء التي ولد فيها حتى بدأ في الانتقال منها إلى أماكن أخرى، ونراه يصل إلى نزوى، وفيها ألّف كتابه مدار حديثنا، وهو إيضاح نظم السلوك، ويظهر من فقه الأحداث أن معيشته فيها كانت أقرب إلى الضيق منها إلى السعة، حتى كتب إليه السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي فأكرمه وأنزله المنزلة التي يستحقها.

وقد ترك الشيخ ناصر أثرًا قويًا فيمن جاء بعده من العلماء والأدباء غير أن اثنين منهما تأثرا به تأثرًا كبيرًا، نلحظ هذا في ما تركاه من كتب، وما نظماه من قصائد، أولهما هو العلامة المحقق سعيد بن خلفان الخليلي والمؤرخ والشاعر حميد بن حمد بن رزيق الذي أفسح مجالاً رحبًا للشيخ ناصر ووالده الشيخ جاعد في كتابيه «الفتح المبين»، و«الشعاع الشائع باللمعان»، ويبدو أن علاقته بهما كانت وثيقة.

علم السلوك

ويتوقف المحقق عند أحد أهم العلوم التي حازها الشيخ ناصر بن جاعد، فيقول «وقد أخّرنا لأسباب منهجية واحدًا من العلوم التي ظهرت جليّة في مصنفات الشيخ ناصر، وخصوصًا في هذا الكتاب، وذلك لأهميته، وتوجيه شخصيته وجهة معينة، ونريد به التصوف أو علم السلوك، ومن الثابت أنه تلقّاه عن أبيه ذوقًا ورياضة، ونمّاه هو بجهده الشخصي قراءة وفهمًا واقتناعًا. وقد ذاع في المصادر بما لا يدع مجالًا للشك أن الشيخ ناصر ووالده قد اتخذا من السلوك طريقة لهما في الحياة وكأنهما كانا يعمّقان ذلك المشرب الذي وجد في الثقافة العمانية من حيث اصطناعه لهما شعارًا وطريقة. ولعلّ هناك من العوامل التي دعت إلى اتخاذ تلك الطريقة منها ذلك النسب الذي وقفنا عنده فيما سبق من حيث الاتصال المباشر بإمامين

المصادر تضنّ علينا بصورة مفصلة لحياة الشيخ ناصر من مولده إلى وفاته

الشيخ ناصر ووالده اهتما بالأحداث السياسية في عمان وكانا مشاركين فيها

من الأئمة مما ولد إحساسًا ثقيلًا بحجم المسؤولية الدينية الملقاة على عاتقهما، وضرورة حمل تلك الأمانة بإخلاص وتأديتها كما هي بلا زيادة أو نقصان.

ومن هذه العوامل الثقافة الدينية الخاصة التي تلقّاها الوالد والابن واختيارهما جانب الزهد والانصراف عن الدنيا من هذه الثقافة مما حملهما على تطبيق ما أخذاه بدقة، ومنها أيضًا الاقتناع الكامل بتلك الوجهة في الحياة التي تؤثر الخلوة والعزوف عن الملذات وهو مما يتلاءم مع تركيب شخصيتهما ومنحاهما في الحياة، وقد بيّن لنا الفاضل أحمد بن سعود السيابي معالم ذلك الاتجاه الذي تبناه الوالد وولده وهو يقوم على عمق التأمل في الوجود والتعمق في علم الكلام والفلسفة والمنطق والخلوة .

ومن الضروري أن نقف عند نقطة أكد عليها الفاضل السيابي وهي قوله: .. حتى إن الإباضية لم يطلقوا على ذلك التوجه اسم التصوف بل أطلقوا عليه اسم السلوك فالشعر الذي تكون فيه نزعة صوفية يسمونه شعر السلوك.

نهج مختلف

وبين الدكتور وليد خالص أن الشراح لشعر ابن الفارض حين تصدوا للشرح في القسم الثاني كانوا يكتفون بشرح قصيدة واحدة من شعره، وعليها تقوم كتبهم، فإذا انتقلنا إلى التخصيص قلنا إنهم حين تصدوا لشرح التائية الكبرى أفردوا الكتاب برأسه لها لم يخلطوه بقصيدة أخرى، وفي الوقت عينه لم تظفر التائية الصغرى بشرح منفصل كالذي رأيناه مع الكبرى؛ غير أننا في عمل الشيخ ناصر نجد أنفسنا إزاء عمل مختلف تمامًا فالشيخ ناصر يختط لنفسه نهجًا مختلفًا وهنا تكمن الأهمية، وتتمثل معالم هذا الاختلاف في أن الشيخ قد جمع في كتابه قصيدتين لابن الفارض لا واحدة، هما التائيتان الصغرى والكبرى وعليهما أقام كتابه، ولا نقول شرحه لأنه كما يرى المحقق أن الشيخ ناصر بن جاعد هو بنفسه اختار لفظة لاعتبارات كثيرة.

ويبين الشيخ ناصر علاقته بشعر ابن الفارض قبل الشروع في تأليف هذا الكتاب فيقول: وأعلم أني لما نظرت إلى منظومة هذا الشيخ واعتبرت معانيها فكلما لاح لي معنى من معاني شيء من بيوتها رسمت تحته بأشد إيجاز تذكرة لنفسي لئلا يغيب عليَّ حين أهمل أمرها، ولم يكن القصد ليكون كتابًا باقيًا بعدي، ولم أرسم غير تقديم لفظ البيت بمعناه وهو الذي قصدت بيانه لنفسي لا شرح المعاني، فإنه لو شرح كل بيت ما يحتمله من المعاني لأفضى إلى مجلدات كثيرة.

فهو إذن لم يرده كتابًا، بل أرادها تعليقات على الأبيات يحتفظ بها لنفسه لتكون عونًا له إن أراد العودة إلى الشعر بعد حين. فهل بدأ الشيخ بصنع الجزازات، وكل جزازة هي الشرح المبدئي البسيط للبيت،

وتتوالى الأبيات، وتتكاثر بعد هذا الجزازات فالشروح؟ فقه النص يشير إلى هذا، غير أنه لم يكتف عند هذا الحد، بل انتقل إلى عمل آخر كان النواة لهذا الكتاب، ولعله رأى أن ما علّق به على الأبيات لم يكن كافيًا فاتخذ وجهة أخرى مصغيًا لنصيحة من نصحه قائلا وأشار علينا بعض الإخوان بترك الكتاب لمن يأتي ويشاء النظر فيه فأجبته وجمعته وسميته كتاب إيضاح نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك وجزّأته ثلاثة أجزاء. وهنا يتساءل المحقق «هل نفهم من قوله السابق أنه يرى القصيدتين شيئًا واحدًا، ولابد لمن يريد التصدي لشرح الثانية فلن يتسنى له هذا إلا بعد شرح الأولى، فكأنَّ الأولى وسيلة الدخول إلى عالم الثانية؟. نحن نعلم أن من الباحثين من ذهب إلى أن التائية الكبرى ليست إلا ترجمة لحياة الشاعر الروحية كتبها عن نفسه بنفسه، وقصّ فيها ما تعاقب عليه من أطوار الحب وما عاناه من ألوان الرياضات والمجاهدات. أقول، نحن نعلم هذا، وكثرة أخرى من الدارسين كان لها رأيها القريب من الرأيين السابقين، ولكن الشيخ ناصر يختط لنفسه طريقًا ثالثًا يختلف عن الطريقين السابقين، ويرى أن هذه الحياة الروحية لابن الفارض في أطوارها الأولى لم تبدأ في التائية الكبرى، أوقصائد الديوان كلها كما رأينا، بل يراها ممثلة في تائيته الصغرى فقط، ومن هنا توجب سلوك الطريق من أوله، والوقوف عند الصغرى لملاحظة ذلك التطور الروحي ورصده، كما أنه يعدل هنا عما قرره سابقًا فقد أخذ بنصح من نصحه، وجعل من القصيدتين وشرحهما كتابًا ذا ثلاثة أجزاء بحسبان أنهما شيء واحد، فهو ليس شرحًا بالمعنى المباشر للشرح بل رصد للتطور الروحي لابن الفارض من خلال القصيدتين.

ويتوقف المحقق عند أمرين نراهما مهمين يتعلقان بالتائية الكبرى وحدها. أما الأول فيتلخص فيما يراه الشيخ ناصر من أن ابن الفارض ركّب جميع كلامه فيها على هذه الرواية المروية التي حكاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى وجعل قاعدتها ومنتهاها في شرح ثلاثة أسماء الله تعالى من أسماء ذاته وصفة رابعة من صفات ذاته جل وعلا وهي السميع والبصير والقدير ولم يزل متكلمًا. أما الأمر الثاني فهو عنوان القصيدة إذ نرى الشيخ ناصر يقدم لها

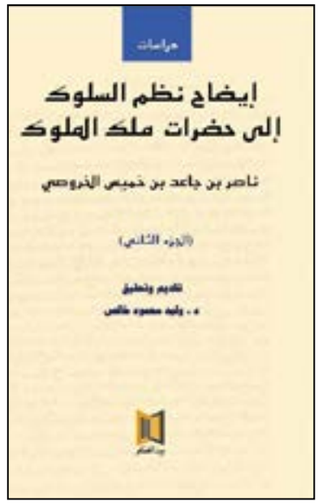

تكمن أهمية الكتاب في أن الشيخ جمع فيه التائيتين الصغرى والكبرى

عنوانًا يكاد يكون جديدًا لم نره في المصادر التي بين أيدينا، يقول: «.. وأعظم ما نظمه ابن الفارض في العلم منظومته التائية وهي التي سماها نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك وكلمة حضرات نحن اخترناها والا فهو سماها إلى خدمة ملك الملوك»، واعتمادًا على هذا سمى كتابه (إيضاح نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك). ولابد من الوقوف قليلاً عند هذا العنوان (الجديد) الذي يذهب إلى أن القصيدة هي (نظم السلوك إلى خدمة ملك الملوك) وهو مخالف للوثيقة التي بين أيدينا في ديباجة الديوان التي كتبها سبط ابن الفارض، ويقدم لنا فيها مراحل تسمية قصيدة جده إذ كان عنوانها أول ما نظمت (أنفاس الجنان ونفائس الجنان)، ثم صار اسمها (لوائح الجنان وروائح الجنان)، ثم ينقل سبط ابن الفارض عن أبيه عن جده أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم « في المنام وقال له: يا عمر ما سميت قصيدتك؟ فيجيب ابن الفارض: سميتها يا رسول الله: (لوائح الجنان وروائح الجنان). فيقول رسول الله: بل سمها نظم السلوك فسميتها بذلك.

واعتبار العنوان الذي تبناه الشيخ ناصر أحد العناوين التي أطلقت على القصيدة في انتظار دراسة مستقلة للعنوان وحده، ويبقى أمر آخر معلقا لا نستطيع البت فيه وهو السبب الذي حدا بالشيخ إلى إحداث ذلك التغيير في العنوان باختيار لفظة بدل أخرى فهذا مما لم يبيّنه لنا.

وحول منهج الشيخ ناصر يذهب المحقق إلى أنه اصطنع لنفسه منهجًا خاصًا به في تأليف هذا الكتاب يقوم على الترتيب والتنظيم، الأجزاء فالأبواب، وتسبقها مقدمة، فكأنَّ هناك خيطًا خفيًا ينتظم الجميع ليوصل إلى النهاية.

وعن أقسام الكتاب يقول المحقق إن الشيخ قسم كتابه إلى ثلاثة أجزاء وجعل لكل جزء عنوانًا، أما الأول فهو «في تخليص النفس والروح إلى مراتب الكمال براية محبة المريدين»، والجزء الثاني «في كمال النبي صلى الله عليه وسلم براية محبة المرادين وفي التوحيد لله المجيد»، وأما الجزء الثالث والأخير فهو في مقامات الحقيقة وفي التوحيد وفي كمال النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا التتابع البديع للأجزاء يشير إلى مرافقة الشيخ الدقيقة لسلوك ابن الفارض وتطوره الروحي، وتنقله بين المراحل مرحلة فمرحلة مما نراه مبسوطًا في التائيتين. ولم يرق للشيخ أن يترك هذا التعميم الذي نلحظه واضحًا على الأبواب فاتخذ من داخلها فصولًا وأبوابًا أوصلها إلى سبعة وعشرين فصلًا وجعل لكل واحد منها هي الأخرى عنوانًا.

ومن خلال البحث العلمي الدقيق يقطع المحقق أن كتاب إيضاح نظم السلوك إلى حضرات ملك الملوك (ثابت النسبة إلى الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي، ولتحقيق هذه النسبة سلك المحقق ثلاثة طرق، أولها نسبة الكتاب إلى الشيخ عند غير واحد من الباحثين قديمًا وحديثًا، وثانيها تصريح الشيخ ناصر نفسه بنسبة الكتاب إليه، وثالثها ورود عنوانه الصريح في ثنايا الكتاب نفسه.

كنز

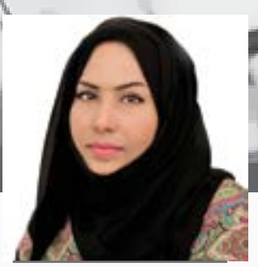

إشراق النهدي

قال: أنت كنز... ودفنها!

هذه الجُملة ذات الكلمتين فقط والتي قرأتُها ليلة البارحة على عجل ودون اكتراث في أحد الأمكنة التي لا أتذكرُ ماهيتها بالضبط، لم تمر على كياني بعبور اعتيادي، بل اجتاحت خاطري وعصفت بهدوئي لتلخِّصَ حياتي كاملة في مجملها البسيط جدا، وقد كنت دائما أراهن على الزهايمر الخاص بي أن يلغيها من ذاكرتي وإحساسي كما يفعل كل مرة مع كل شيء، ولكنه هذه المرة كسر قوانينه وتنصل من عرفه، لا أفهم لماذا! بل إنه تشوق بعناد إلى حد أن هذه الجملة أخذتني إلى مجرى تفكير آخر مشتت لا أتمنى له أن يدوم، وباتت تحوم حولي أفكار هوجاء بائسة، تشق في داخلي قائمة طويلة وعريضة طارحة سيلا ملحا للإجابة عن أسئلة لا تهدأ إلا بجواب.

فقط جملة تريد أن تعرف كم مرة دفنوني لأصبح كنزهم الأبدي؟

أتذكر والدتي أول مرة، عندما كنت في السادسة من العمر، انتزعت من بين يدي دمية كانت ترتدي فستانا أبيضَ بدا واضحًا لي أنه فستان زفاف، وبدأت تقنعني بأن من يلعب بالعرائس يتزوج مبكرا، وكنت ساعتها أظن بأن الزواج شيء مخيفٌ كابوسٌ لا يمكنني أن أتقبّله، وخاصة عندما رأيت صديق والدي يخطبني مازحا لابنهم آنذاك، وفكرت أنهم ربما يرغمونني على الزواج ساعتها، حينها حسمت أمري بألا ألعب بالدمى أبدًا حتى تلك التي لا تلبس فستان زفاف، ذلك اليوم أيقظ لدي رغبة عجيبة وحلما غريبا بأن أتحول ولدا، ساعتها لن أضطر إلى الارتباط بولد اخر. في هذا الحدث البسيط جدا كما أراه الآن بوجهة نظر امرأة ناضجة.. أجدني كنت طفلة ساذجة وخائفة، لكن مطيعة تم دفن حلم اقتناء الدمى لديها....

بعدها أتذكر والدي، عندما أجبرني على الانضمام إلى سلك المعلمات المملات مباشرة بعد التخرج من المدرسة، فقط ليضمن عدم اختلاطي بالرجال أو الوقوع في علاقة حب مع أحدهم أو أتعرض لخديعة منهم، فأجبرني على التدريس، وكنت أحلم بأن أصبح شيئا إبداعيا وخلاقا أكثر من مجرد كوني معلمة، كصحفية مثلا أو أن أتحرر قليلا وأصبح طيارة لأطير بعيدا عن هنا.... لكنه دفن أحلامي معترضا وممارسا لابتزاز عاطفي يقيم فيه طاعتي له، لأصبح بعدها ابنة بارة تتصاع له.

ثم عندما بدأت أعمل وأكسب مالا جيدا، قررت أن أبتاع سيارة ، لكن أخواني الذكور أحالوا دون تحقيق رغبتي، فتحول كل مالي لدفع أقساط سياراتهم مقابل توصيلهم لي إلى كل مكان أرغب في الذهاب إليه. حينها وافقت مراعاة لئلا أحرجهم أمام الناس أو أغضبهم، ولكني اكتشفت لاحقا أنني سأضطر لاستئجار سائق لتدبير مواصلات ثابتة تنقلني للعمل.... ساعتها دفنت حلمين لي: الراتب الذي يُقسط للبنك شهريا، والآخر السيارة التي لن أقتنيها بتاتا.

بعدها بسنتين تقدم لخطبتي أحدهم، لم أُبدِ أيّ اعتراض، لأني حتى وإن تجرأت ورفضت، فلن تسعني المناضلة من أجل التمسك باعتراضي، فأنا -كما يبدو واضحا- في مواجهة الجميع أمام رفض وحيد وضعيف، فقررت الانصياع لهم مرة أخرى معللة بأن الحب ربما يأتي بعد الزواج كما تقول والدتي، لكنه ما أن علم زوجي بأني مديونة وبلا راتب كامل، تغير وبدأ يعاملني بطريقة غير لطيفة وببرود تام، ولكن دون اختلاق مشاكل أستطيع أن أثور ضدها لأطالب بحق الاهتمام والمودة.. ولكن أعلم جيدا أن هذه الأشياء لا تُطلب بل تمنح طواعية... لهذا قررت أن أصبح نصف الممول المالي لاحتياجات البيت، لكن وبالمقابل لم أجد نصف ما أتمنى من قلب الزوج..... ساعتها جمعت أشلاء أحلامي المتبقية وأشعلتها في أكبر محرقة وتمنيتها الأخيرة.. وما أظنها كذلك.